الفصل الأول

الفرق بين التفسير والتأويل

علىٰ الرغم من أن العرب الذين أُنزل فيهم القرآن الكريم ، كانوا علىٰ مستوىٰ رفيع من التذوّق اللغوي ، وذلك من خلال اهتمامهم بالشّعر والبلاغة ونحو ذلك ، علىٰ الرغم من ذلك فإنما احتيج إلىٰ شرح وتأويل للقرآن الكريم ، قال الإمام السيوطي: (إن القرآن إنما نزل بلسان عربي في زمن أفصح العرب ، وكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه ، أما دقائق معانيه ، فإنما كان يظهر لهم بعد البحث والنظر ، مع سؤالهم النبي ﷺ في الأكثر ، كسؤالهم لما نزل قوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾[1].

فقالوا: وأيّنا لم يظلم نفسه؟!

ففسّره النبي ﷺ ، واستدلّ عليه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[2].

وكسؤال عائشة رضي الله عنها عن الحساب اليسير ، فقال: «ذلك العرض».

وكقصة عديّ بن حاتم في الخيط الأبيض والأسود وغير ذلك ، مما سألوا عن آحادٍ منه ، ونحن محتاجون إلىٰ ما كانوا يحتاجون إليه ،

---

(١) الأنعام: ٨٢.

(٢) لقمان: ١٣.

وزيادة علىٰ ذلك مما لم يحتاجوا إليه من أحكام الظواهر ، لقصورنا عن مدارك أحكام اللغة بغير تعلّم ، فنحن أشدّ الناس احتياجاً إلىٰ التفسير ، ومعلوم أن تفسير بعضه يكون من قبل بسْط الألفاظ الوجيزة ، وكشف معانيها ، وبعضه من قبيل ترجيح بعض الاحتمالات علىٰ بعض)[1].

وهكذا فمسألة تفسير القرآن وتأويله شرف كبير يؤتيه الله من شاء من خلقه ، دليل ذلك قوله تعالىٰ: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾[2].

وفسّر الحكمة حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنه بقوله: المعرفة بالقرآن ، ناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، ومقدّمه ومؤخره ، وحلاله وحرامه ، وأمثاله.

ومن طريق آخر قال ابن عباس: يعني تفسير القرآن ، فإنه قد قرأه البرّ والفاجر.

وزاد أبو الدرداء فقال: الحكمة هي: قراءة القرآن والفكرة فيه.

قال الأصبهاني: أشرف صناعة يتعاطاها الإنسان تفسير القرآن ، بيان ذلك أن شرف الصناعة إمّا بشرف موضوعها مثل الصياغة ، فإنها أشرف من الدباغة ، لأن موضوع الصياغة الذهب والفضة ، وهما أشرف من موضوع الدباغة الذي هو جلد الميتة ، وإما بشرف غرضها ، مثل صناعة الطب ، فإنها أشرف من صناعة الكناسة ، لأن غرض الطب إفادة الصحة ، وغرض الكناسة تنظيف المستراح ، وإما لشدّة الحاجة إليها كالفقه ، فإن الحاجة إليه أشد من الحاجة إلىٰ الطب ، إذ ما من واقعة في الكون في أحد من الخلق إلا وهي مفتقرة إلىٰ الفقه ، لأن به انتظام

(١) الإتقان في علوم القرآن: ٤/ ١٧٠.
(٢) البقرة: ٢٦٩.

صلاح أحوال الدنيا والدين ، بخلاف الطب ، فإنه يحتاج إليه بعض الناس في بعض الأوقات.

وعلق الحافظ السيوطي علىٰ ذلك بقوله:

إذا عرف ذلك ، فصناعة التفسير قد حازت الشرف من الجهات الثلاث ، أما من جهة الموضوع ، فلأن موضوعه كلام الله تعالىٰ الذي هو ينبوع كل حكمة ، ومعدن كل فضيلة ، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، لا يخلق علىٰ كثرة الردّ ، ولا تنقضي عجائبه ، وأما من جهة الغرض ، فلأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقىٰ والوصول إلىٰ السعادة الحقيقة التي لا تفنىٰ ، وأما من جهة شدة الحاجة ، فلأن كل كمال ديني أو دنيوي ، عاجلي أو آجلي ، مفتقر إلىٰ العلوم الشرعية والمعارف الدينية ، وهي متوقفة علىٰ العلم بكتابة الله تعالىٰ[1].

واختلف العلماء في التفسير والتأويل ، فمنهم من قال: إنها بمعنىٰ واحد ، ومنهم من قال: بل إنهما مختلفان في المعنىٰ.

قال العلامة ابن منظور: (الفسر) البيان ، فسر الشيء يفسر بالكسر ويفسره بالضم فسراً ، وفسره: أبانه ، والتفسير مثله.

ثم قال: الفسر: كشف المغطىٰ ، والتفسير: كشف المراد عن اللفظ المشكل[2].

وفي الاصطلاح: عرّفه العلامة الزركشي (ت: ٧٩٤ هـ) بقوله: هو علم يفهم به كتاب الله المنزل علىٰ نبيه محمد ﷺ ، وبيان معانيه ، واستخراج أحكامه وحكمه[3].

---

(١) للتوسّع يراجع: الإتقان في علوم القرآن: ٤/ ١٧٣.
(٢) لسان العرب: ٦/ ٣٦١.
(٣) البرهان في علوم القرآن: ٢/ ٢٨٧.

وعرفه بعضهم بأنه: علم نزول الآيات ، وشؤونها ، وأقاصيصها ، والأسباب النازلة فيها ، ثم ترتيب مكيها ومدنيها ، ومحكمها ومتشابهها ، وناسخها ومنسوخها ، وخاصها وعامها ، ومطلقها ومقيدها ، ومجملها ومفسّرها ، وحلالها وحرامها ، ووعدها ووعيدها ، وأمرها ونهيها ، وعبرها وأمثالها[1].

وأما التأويل فعرّفه ابن منظور بقوله: الأَوَل: الرجوع ، آل الشيء يؤول أولاً ومآلاً: رجع ، وأول الشيء: رجعه ، وألت عن الشيء: ارتددت ، وفي الحديث الشريف: «من صام الدهر فلا صام ولا آل» أي ولا رجع إلىٰ خير. . . . ثم قال: وأوّل الكلام وتأوّله: دبره وقدره ، وأوله: فسّره[2].

أما عن الفرق بين التفسير والتأويل: ففي ذلك اختلاف وجهات نظر:

قال بعضهم: التفسير ما يتعلق بالرواية ، والتأويل ما يتعلق بالدراية[3].

وقال الراغب الأصفهاني: التفسير أعمّ من التأويل ، وأكثر ما يستعمل التفسير في الألفاظ ، والتأويل في المعاني ، كتأويل الرؤيا.

والتأويل يستعمل أكثره في الكتب الإلهية ، والتفسير يستعمل فيها وفي غيرها ، والتفسير أكثره يستعمل في مفردات الألفاظ ، والتأويل أكثره يستعمل في الجمل.

فالتفسير إما أن يستعمل في غريب الألفاظ كالبحيرة والسائبة

---

(١) الإتقان في علوم القرآن: ٢/ ١٧٤.
(٢) لسان العرب: ١٣/ ٣٤.
(٣) الإتقان: ٢/ ١٧٣.

والوصيلة ، أو في تبيين المراد وشرحه ، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[1].

وإما في كلام مضمن بقصة لا يمكن تصوره إلا بمعرفتها ، نحو قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾[2] وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾[3].

وأما التأويل: فإنه يستعمل مرة عاماً ، ومرة خاصاً ، نحو الكفر المستعمل تارة في الجحود المطلق ، وتارة في جحود الباري خاصة.

والإيمان المستعمل في التصديق المطلق تارة ، وفي تصديق دين الحق تارة ، وإما لفظ مشترك بين معان مختلفة ، نحو لفظ وجد ، المستعمل في الجدة والوجد والوجود[4].

وقال الماتوريدي:

التفسير القطع علىٰ أن المراد من اللفظ هذا ، والشهادة علىٰ الله أنه عنىٰ باللفظ هذا ، فإن قام دليل مقطوع به فصحيح ، وإلا فتفسير بالرأي وهو المنهي عنه ، والتأويل: ترجيح أحد المحتملات بدون القطع والشهادة علىٰ الله[5].

وعلّل الزركشي سبب الاختلاف فقال: وكان السبب في اصطلاح كثير علىٰ التفرقة بين التفسير والتأويل التمييز بين المنقول والمستنبط ، ليحيل علىٰ الاعتماد في المنقول ، وعلىٰ النظر في المستنبط[6].

* * *

---

(١) البقرة: ٤٣.
(٢) التوبة: ٣٧.
(٣) البقرة: ١٨٩.
(٤) مفردات ألفاظ القرآن: ٤٠٢.
(٥) للتوسع يراجع: الإتقان ٢/ ١٧٣.
(٦) البرهان للزركشي: ٢/ ٢٩١.